الزمن البخيل

بقلم : عبد الرحمن أبو عوف

المنيرة ترقد فى منتصف الليل .

هذا الحى الصغير الهادىء المنزوى خلف حى السيدة زينب العتيد والرابض بجوار شارع القصر العينى الهائل ومبنى المستشفى الضخم المتجهم ومبانى كليات الطب والصيدلة القديمة الصفراء الباهتة ، عربات الاسعاف تحوم دوما فى صحن الميدان الصغير المعتم ، اشباح تتكوم فى الأركان الرطبة وأصوات عويل وبكاء منكسر وانتظار طويل مؤلم ممتد للموتى ، غرباء أتوا من بعيد ليموتوا فى المدينة الكبيرة .

حى أصفر محاصر بالمرضى متلفع بالحزن تظلله سحب قاتمة كئيبة دائما وتتكثف التعاسة فى شوارعه الضيقة حتى عند اقترابه من ميدان زين العابدين المزدحم الساهر أبدا يصطدم بمبنى مستشفى أبو الريش للأطفال قائمة فى عبوس المرضى هنا صغار هزال يطلون من نوافذ المبنى كأنها جروح دامية فى وجه هائل ... حياة تمرض فى مكبورتها وتحنق ابتسامة الطفل .

هذه الصور المركبة المتداخلة من الحياة وهى تتلاشى وتضعف وتذوب وتمرض كانت تكشف لدى رأفت احساسا غامرا بالحزن والملل والتشاؤم . وما أكثر ما تساءل بينه وبين نفسه لماذا اختار أبوه هذا الحى للاقامة به .

عام ١٩٤٢ عندما اشترى هذا البيت القديم ذا الطابقين بأبراجه الخشبية الحمراء تتوسطهما قبتان صغيرتان معلقتان فى جبهته وبوابة البيت الشامخة تنطق شواهد كثيرة ان هذا البيت شهد أياما من العز فشارع اسماعيل سرى بمنازله ذات الطراز المعمارى التركى المحاطة بحدائق مهملة الآن كل هذا كان يوحى بعراقة العائلات القديمة التى كانت تقيم فيها غير أن المبانى الحديثة اخذت تزحف الى الشارع هذه السنين الأخيرة وأكثر من بيت من هذه البيوت القديمة قد اخلى مكانه للمبانى المتشابهة فى طرازها الباردة فى الاحساس الذى تمنحه للانسان ، ولم يبق سوى بيتهم وعدد قليل آخر من البيوت محافظين على وقارهم العتيد كرجال ترتدى

الطرابيش وسط مجموعة من الشباب بقمصانهم وسواعدهم المكشوفة .

هـــذات الضـــجة الآن فى الطريق واستسلمت المنـيرة للصمت الهـائل واحتواها ليل الشتاء الطويل فى عباءته السوداء المسحورة وبدا الوجود وكأنه يغيب عن وعيه مستسلما للأحلام وبين الحين والحين يتمزق الصمت عن صوت مترو حلوان وهـو يمرق مخترقا قلب المنيرة .

ورأفت يعرف طريقـه الى عشـائه كالعادة دائما عنـدما يعود متأخرا الى البيت الصامت تشابكت أحاسيس الملل والرتابة مصـــاحبة لغريزة الجوع الى دفعه الى المائدة يتناول شيئا من الطعام وعيناه تدوران فى أرجاء الشقة الكبيرة العائمة فى الظل والهدوء المريب فالوالدين

قد آوى كل منهما الى حجرته ربما من ساعات .

هو الوحيد الساهر حتى هذه اللحظة من الليل .

الوحدة الباردة تحاصره وهموم شتى تغمره ويبدو أن ثمة نهـاية تقترب فى بطء مميت .

وعالم الأصوات والخلافات والضجيج والمناقشات والاشتباكات المحببـــة بين الاخوة والحياة المشتركة فى الأكل والنوم والمذاكرة . أين كل هذا الدفء .... خلا البيت الآن من الاخوة .. كل قد كبر وتزوج وغادره الا رأفت .

ومضغ مع عشائه طعم التعاسة .

صـــحة والده بدأت تتدهور هـذا الشتاء تدهورا مثيرا للقلق ولا يستطيع أن يمنع نفســـه من التحديق فى اليوم الرهيب الذى يبدو انه يقترب فى هرولة وقسوة .

وفى الفراغ الممتد أمامه يحوم دوما سؤال قاتل مسموم .. ماذا لو مات ؟؟

كل شىء يذبل ويســـقط ويشحب أمامه ، ويتوه بعيـــدا بعيدا عن منطقة الادراك . ودفع بالأطباق . وقبض على كوب الشاى الدافىء ودلف الى حجرته يلوذ بســاعات الصفو النادرة من يوم له نفس اللون المشـــابه الباهت لأيامه التى بدأت يوم عين فى هـذه المؤسسة محاسبا .

تلك الساعات الطويلة الممددة كالمرضى الضائعة منه بين جدران أدارة التخطيط والاستيراد معتكفا على مـكتبه وأمامه الآلة الحاسبة المعقدة مدفون بين الأرقام والملفات .

ويجد نفسه يوما بعد يوم بلا شعور يذهب فى جزء من كل يتحرك على ايقاع واحد متشابه ... جزء من طابور جماعى منظم رتيب يقف أمام الساعة يثبت حضوره وانصرافه اربعة مرات فى اليوم .

وابتسم وجهه الأسمر الوسيم وهو يتأمل حجرته الدافئة الحبيبة اليه ، السرير المتوسط ودولاب الكتب القاتم اللون الشامخ فى ركنى الحجرة والمكتب العتيد مطبوع بذكريات دافئة لسنوات من العمر انقضت فى صبر وصمت فوقه والكتب حوله فى كل مكان وأكداس المجلات وأوراق الصحف القديمة ... الصفحات الأخيرة من جريدة اللواء والجريدة وأعداد الكتاب المصرى ومختلف الملاحق الأدبية للصحف التى صدرت ربما قبل ان يعرف القراءة هذه الأشياء الغالية الأثيرة لديه الباقية مما تركه أخوته الكبار قبل أن يتزوجوا ويغادروا البيت، الكبير وخطت أقدامه على السجادة العجمى العريقة المبسوطة على أرض الحجرة .

وصورة الأب فى شبابه تطل عليه فى كبرياء وحب عينيه السوداوين الجميلتين وأنفه الدقيق وشاربه الأنيق .

أين كل هذا التناسق الجميل الذى يشع حبا لبداية الحياة من الغضون التى بدأت تزحف الى وجهه وشعر بدبيب اليأس يزحف الى قلبه .

ما يخفف من لوعة القلب الحزين ويجلب العزاء اليه هذه الرحلة المتوحدة التى تبدأ مع منتصف الليل وتستمر ساعات يجوب خلالها كتبه متنقلا بين عصور جميلة للعقل والفن .

هوميروس ودانتى وتولستوى وجوركى ونجيب محفوظ ... اصدقاء هذه الساعات من العمر .. عندما يدلف الى عالمهم المسحور تسقط عنه شيئا هذه التراكمات والقشور الغريبة التى صاحبت سنوات العمل فى المؤسسة هذه الحالة الغريبة التى بدأ يشعر بها عندما سلك فى عداد الموظفين ، وبدأت تستغرقه رويدا رويدا هموم العمل والنفوس المريضة المعقدة لنماذج عديدة تعرف عليها فى هذا المحيط وأيضا هؤلاء الشباب المتفتح الطيب المقبل على حياة العمل الجديدة بلا شىء موتور غريب يحرمهم دائما مثله الى الماضى .

فى هذه اللحظات دائما يعود رأفت القديم بأحلامه المجهدة وتعود اليه الأيام البخيلة ... أيامه المسروقة منه ... ساعات القراءة التى لا تنتهى والمناقشات الصاخبة والاجتماعات الملتهبة بالحماس ... عام ١٩٥٦ ولجان المقاومة الشعبية ضد العدوان الثلاثى . والقاهرة تموج بالجماهير الغاضبة الهادرة وصوت عبد الناصر الغاضب يعلو فى الأزهر ويتسلل الى الميادين المزدحمة والشوارع والحوارى والبيوت والقلوب لن نستسلم ... وأمواج السخط والغضب تحاصر كل مكان تجول فيه رأفت ومدرجات كلية التجارة والطلبة تتجمع فى حلقات صغيرة ودوامات من المناقشات الحادة الملتهبة وما تلبث هذه الحلقات أن تتسع وتتسع لتتحول الى

محيط كبير يهدر فى صوت واحد ... كان يجب أن نزحف الى بورسعيد بورسعيد الثغر الباسم فى حزن ووقار والبيوت المتساندة والوديعة والشوارع المستقيمة لها رائحة البحر وأهالى الثغر المندفعين فى رشاقة وأجسادهم الرقيقة وملامحهم الجذابة ... غير أنهم مصبوبون حادى المزاج والقنال مضىء فى الليل الرهيب العين السحرية من خلالها تطل بلاده على العالم هذه البلدة الشابة المموجة بوجدانه دائما غير أنه توقف كثيرا عند هذا السيل من الخواطر الذى أغرقه فى هذه اللحظة من الليل .

نعم ماذا جعله يحن الى هذه الأيام ؟!

صحيح أن رأفت بدأ يضيق بهذه الحياة الجديدة التى يعيشها كموظف منظم الوقت غير أنه شعر عندما انسالت ذكرياته الى بور سعيد وأيامها الملتهبة ان لهذا علاقة ذات ظلال بالزميلة الجديدة التى بدأت تعمل معه منذ شهور ..

هى أيضا من بور سعيد ... عرف ذلك فى البداية من لكنتها المميزة وملامحها الجذابة .

هو يعرف جيدا هؤلاء البنات .. بنات بورسعيد ، السمرة الدافئة والشعور السوداء الغزيرة والاعتزاز المغالى فيه والخجل الساحر .

وصحيح ايضا أنها منذ أن عملت معه وفى نفس الحجرة بدأ يشعر بها ويرقبها وثمة تغيرات سريعة فى عواطفه نحوها . ربما لم يهتم فى البداية .. غير أن الاشتباكات اليومية وعلاقات العمل الصغيرة تنسج ثمة علاقة لها طعم خاص ومذاق حلو .. ربما هى أيضا تشعر بذلك فهو يعرف معنى هذه النظرات الطويلة العميقة المتسائلة ، وهذا التودد الحبيب من ناحيتها وهذا الاهتمام الذى ينمو يوما بعد يوم من جانبها به .

هل آن للقلب النائم منذ شتاء يبعد عامين أن يخفق من جديد . ؟

رأفت قد أحب يوما وكانت أيضا لها عينان سوداوان وشعر أسود كالليل ..

وكان ذلك فى سنوات الدراسة وأحلام مقتبل العمر ، ان يصطاد النجوم أن يفعل شيئا ضخما .

ما هو ؟ الغريب انه كان يعرفه . ولا يدريه ... وعندما لا يدرى صاحب الحلم فهل تدرى رفيقته ... لقد انجذبت اليه فى البداية ثم ما أسرع ما تعبت من أحلامه وتفكيره الدائم فى الماضى وحديثه المشغول المنهوم ببلاده . وبين تردده وأحلامه المبهمة وسنوات الدراسة غير المستقرة .. ضاعت منه . سرقتها الأيام البخيلة كما أوشكت أن تسرق ماله الآن من بقايا أحلام قليلة ووصل به الزمن الى هذا العمل الذى يمارسه بشعور متكرر .

غير ان رأفت عندما يزحف كل صباح من الجموع الهادرة ويرقب حركة الناس العاتية والترام المزدحم والأتوبيس الممتلىء والخناقات الصغيرة يشعر بجديد يولد فى بلاده وحياة ممتلئة بالأحلام الصلبة تنساب فى الشوارع .. الهائلة .

وعندما يحدث زميلته فى العمل عن

بور سعيد وكيف صهرتها الحرب عام ١٩٥٦ ومبانيها الجديدة وتقول له بصوتها الرقيق ولكنتها المميزة .

لم يعد هناك حى أفرنج وعرب ولا شواطىء أفرنج وعرب ... كل الشواطىء أصبحت واحدة يغسلها البحر ، عندما تقول هذه الكلمات يشعر بظمأ لشىء يغسل روحه هو أيضا شىء مثير يوقظه من الماضى الذى بدأ يتمسك به . وتكثف الصمت حوله .. صمت هائل ضخم يملأ الحجرة ودخان كثير يحلق حول مصباح المكتب وعيناه تدمع منه واستسلم فى اغراء للصمت والذكريات وزميلة العمل وأحاديثها البسيطة عن بور سعيد .

واستيقظ شيئا فشيئا على دبيب أقدام والده تعبر الصالة ... ثم اقترب الوجه الحبيب المتعب من فتحة الباب يطمئن عليه .

هل نام وترك المصباح مضاء كعادته كل مساء .

ما زلت يا رأفت صغيرا ... أبوك يطمئن عليك .

غير أن ثمة طمأنينة تنساب فى داخله وصاحبة العينين السوداوين لا تفارق ذهنه حتى عندما شرع يمسك القلم ليخط أحداث اليوم كعادته فى مفكرته الزرقاء .

كان يشعر بالقلم يهتز فى يده وبأنه يوشك أن يتخذ قرارا فى حياته ودار بعينيه فى حجرته وكأنه يفتش فى داخل نفسه عن شىء يتراجع به عن قراره الحاسم ، غير أن كل الأشياء فى الحجرة متجهمة تنتسب الى الماضى ... فهل يولد جديد فى حياته ... وهل يستقبل الشمس الدافئة عندما تطل من الوجه الأسمر والعينين السوداوين عندما يذهب فى الصباح الى العمل .

ويستقبل زميلته من بور سعيد ويقول لها كلمة صغيرة لا شك تنتظرها فى ظمأ ، كلمة ربما تعيد اليه الدفء والانسجام وتجعله يعانق الحاضر ويفلت من قبضة الماضى العائم فى الظل ... صوت مترو حلوان يمزق الصمت من بعيد والوالد عاد الى حجرته وهو قد آن له أن يأوى الى فراشه وعندما اظلمت حجرته غرق فى ضوء ينبع من داخله ضوء ربما يأتى من بعيد كاشفا كل حياته الماضية .

وتنسال خواطره فى سرعة مجنونة وتتشابك آلاف الصور العديدة فى حياته غير أن ثمة لحظة هائلة مذهلة يجتازها ، لحظة يشعر فيها أنه على وشك أن يتجدد ، أن يولد مع ميلاد الغد فى الصباح .